

أبو العتاهية، حياته وشعره^١

محمد علي أطرشي شهرضا*

حسين كياني**

الملخص

ولد أبو العتاهية في العراق ونشأ في الكوفة التي اتخذها الشيعة مركزاً لهم، والتي أعلن العباسيون فيها دولتهم الجديدة التي اعتمدت على القوة العسكرية، وقامت بأعمال حربية موفقة ضد دولة الروم. عاش أبو العتاهية عهداً يسميه المؤرخون العصر الذهبي باعتبار ما كان فيه من أمجاد. فنشط في هذا العصر علماء اللغة والأدب، ولقي شاعرنا بعضهم، فأخذ عن بعض فيما يقولون ويفعلون.

ظهر أبو العتاهية في فترة شاع فيها المجون، فعاشر الخلاء وسلك طريق التهلك. فبدأ الشعر فكان حلو الإنشاد فطار له صيت. وامتدح الخلفاء ونال جوائزهم واستطاع أن يحظى بمكانة عالية بحيث كان العامة يعرفونه والخاصة يرفعونه درجات عالية، وتعرّف على سعدى التي كان ينظم لها الشعر في الموت لتتوح به على من يموت، حتى حدث ما أدى إلى الخلاف بينهما. ثم ذهب إلى بغداد وتعرّف على عتبة جارية المهدي، وشبّب بها وجرى له ما جرى. فانصرف إلى الزهد وحبس حتى يعود إلى الغزل فلم يخضع، واتهموه بالزندقة لأنهم لم يجدوا في شعره الزهدي سوى ذكر الموت. فدافع عن نفسه خير دفاع عن اتهامه بالزندقة التي كانت تُؤدي به إلى الهلاك لو ثبتت. فدخل الأدب التعليمي، واستمد منهجه من مصادر الإسلام.

المفردات الرئيسية: أبو العتاهية، الغزل، الزهد، الزندقة، الموعظة، الحكمة

المقدمة

يبصر المطلع على الأدب العربي أمامه طريقاً فيها علامات تهدي سالكها إلى ما لها من خصائص. هذه العلامات هي بمثابة

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٥/١١/٤ هـ. ش (٢٠٠٨/١/٢٤ م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٦/٩/١٣ هـ. ش (٢٠٠٧/١٢/٤ م).

* ماجستير في اللغة العربية وآدابها

** أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شيراز

المنارات التي تهدي الملاحين في البحار الواسعة إلى برّ الأمان ؛ وأعلام الأدب العربي هم المنارات التي تُوجّهنا إلى معرفة مسالكه ومذاهبه. وأبو العتاهية أحد هؤلاء الأعلام الذين يدلون على جزء مهم من الطريق ، وقد وقف معه طائفة من الذين تطور على أيديهم الأدب العربي.

كان في أبي العتاهية شيء غريب يتطلب كثيراً من الدقة حين يظهر علينا في فترة شاع فيها المجون ناظماً في الزهد، يسلك في شبابه طريق التهلك. فنجد أكثر ما بأيدينا من شعره في الموعظة ، فيطلق عليه اسم «شاعر الزهد» فيطلع للناس بثياب الزهاد، بينما يخفي في أعماقه عقيدة الثنوية المانوية ، فوجد الباحثون ملامح المانوية في شعره الزهدي.

١ - بيئة أبي العتاهية

١ - ١ - موطنه

ولد أبو العتاهية، ونشأ، ومات في العراق. مولده عين التمر، ونسبته «العيني»، نسبه صاحب الأغاني إلى الكوفة (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٦م، ص ٥)؛ وقال صاحب أحسن التقاسيم أن عين التمر كانت تابعة للكوفة، والمسافة بينهما يسيرة (مقدسي، ١٣٦١هـ. ش، ص ٧٧، و ١٥٨).

اختلفت الروايات حول تحديد وقت إنشاء الكوفة (ياقوت الحموي، ١٩٦٥م، ص ٣٢٢، و ٣٢٣)؛ نزل المسلمون الكوفة في أواخر عام «١٧هـ» (البلاذري، ١٨٦٦م، ص ٣٣٨)؛ فورثت الكوفة عن الحيرة سكّانها (إصطخري، ١٣٤٧هـ. ش، ص ٣٤٢) وأدبها، فاتخذ الشيعة الكوفة مركزاً لهم، ووجدها العباسيون خير مكان يمكن أن يعلنوا فيه دولتهم الجديدة (ابن الأثير، ١٩٦٥م، ص ١٩٣، و ١٩٤)؛ فأقبل الفتيان في صبا أبي العتاهية في الكوفة إلى النشاط الأدبي إقبالاً شديداً، فهم يجلسون في طرقات المدينة يتذكرون الشعر ويتناشدونه (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٦م، ص ٥١)؛ حتى إذا نبه ذكره شاعراً، وجدنا الأحداث يأتونه لينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسّر من الخبز فيكتبونها فيه (السابق).

عاش في الكوفة أعلام على أيام شاعرنا، فلقى بعضهم فأخذ عن بعض فيما يقولون ويفعلون مما أدى إلى اضطرابه الاعتقادي، ورأى نظاماً سياسياً مستقراً للعباسيين يعيش فيه العرب مع طبقة الموالي من الفرس والنبط والسريان وغيرهم الذين أصبح لهم شأن خطير من الناحيتين السياسية والاجتماعية. فمنهم في الدولة الوزراء والكتاب والولاة والعلماء والأدباء. فهذا البلد الذي نزل إليه منذ تأسيسه عدد من الصحابة يعلّمون الناس الفقه والدين، كانت فيه مظاهر للمجانة تبدو منذ تاريخه الأول، حين نسمع عن الوليد بن عقبة، أخي عثمان بن عفان من أمه، وكان فتى من شعراء قريش وشجعانهم وأجوادهم، ووالي الكوفة لعثمان، نسمع أنه يتهتك في الشراب ويتخذ بيته للمراق من أهل العراق (ابن حجر، ١٩٠٧م، ص ٣٢٢)، حتى إذا كان القرن الثاني وجدنا للجواري الغانيات أثراً كبيراً في زيادة حدّة التحلل، وكل ذلك كان بوحى من الأفكار الجديدة التي انتشرت على يد ابن المقفع وغيره مما ترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنّفوه في المانوية (عبدالعال، ١٩٥٤م، ص ١٠٢ - ١٠٤).

١ - ٢ - بيئته السياسية

لعبت المذاهب السياسية دوراً هاماً منذ قيام الدولة العباسية، وكان من الممكن أن يؤدي هذا الدور إلى تهديم أركانها، لولا أن هذه المذاهب لم تكن على شيء من النظام أو التعاون يؤدي إلى ذلك، ولولا ما اتصف به العباسيون منذ بدء دعوتهم بالدهاء

والحيلة ثم بالحزم، واعتمدوا على القوة العسكرية في مجابهة الهزات الثورية والشعبية والإلحادية، وقد حفل عهدهم بكثير من هذه الهزات التي كان أخطرها تلك التي كانت تدعو لإقامة سلطان فارسي، فقد اهتم العباسيون بالزنادقة، فاشتدوا في طلبهم وقتلهم. والمؤرخون يسمون هذا العصر «العصر الذهبي» باعتبار ما كان له من أمجاد فيه. وجمعت في خزائن هذه الدولة ثروة ضخمة كانت تصرفها في الشؤون المختلفة، وبذلت جهوداً موفقة في تحسين أحوال الرعية، وقامت بأعمال حربية موفقة ضد دولة الروم، وعملوا على تقوية جانبهم عسكرياً، وبنوا الثكنات الخاصة بالجند في بغداد والرصافة والحدود، واحتضنوا عدداً من الرجال الأقياء من أمثال خالد بن برمك؛ فبعد ما قتل المنصور بأمر الخراساني، غضب الخراسانيون وثاروا تحت قيادة رجل يدعى سباز عام (١٣٧هـ)، وغلبوا على كثير من بلاد خراسان، ولكن فرسان المنصور أحمدا هذه الثورة، ويروى أنه قتل في هذه الفتنة نحو ستين ألفاً من الثوار (الطبري، ١٩٣٩م، ص ١٤٠؛ وابن الأثير، ١٩٦٥م، ص ٢٢٩).

يبدو أن أتباع أبي مسلم وجدوا أن الفرصة ليست مؤاتية للثورة المسلحة الشاملة، فعمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح وادعوا أن أبا مسلم يؤمن بها، وأن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك، قائد حرس المنصور، والمنصور ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم، وأنهم يطلبون رؤية ربهم هذا، فلما طلع عليهم عثمان ليقنعهم قتلوه بسهم، ونجا منصور من موت محقق. ثم ظهر رجل يدعى إسحق دعا الناس إلى أبي مسلم، وزعم أنه نبي أرسله زرادشت وأنه لا يزال حياً لم يميت (شريف، ١٩٥٤م، ص ٥٥).

ثم ظهر المقنع، وهو رجل أعور قصير ادعى الألوهية، وقال بالتناسخ، وأن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، وهلم جراً إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إليه هو، وكان يقول إن أبا مسلم أفضل من النبي، وشرع كثيراً مما جاء في المانوية والمزدكية، وأباح حرمان الإسلام، فأتبعه خلق كثير وكانوا يسجدون له (ابن الأثير، ب ١٩٦٥م، ص ١٦، و ٢١؛ وبروكلمان، ١٩٧٤م، ص ١٨١، و ١٨٢؛ وابن طباطبا، ١٣٦٧هـ. ش، ص ٢٤٤، و ٢٤٥).

بدأت حروب مهمة منذ أيام المهدي، مع ملك الروم قسطنطين، والملكة إيرين، حين كان المهدي يستعين بابنه هارون مع عدد من قواده الماهرين لصد عدوان الروم، واتسمت أيامه بكثرة هذه الحروب، وكان النصر غالباً لحليف المسلمين (حتي، ١٣٦٦هـ. ش، ص ٣٧٨)؛ وفي ذلك يقول أبوالعتاهية:

ألا نادَتْ هِرْقَلَةُ بِالْخَرَابِ	مِنَ الْمَلِكِ الْمُؤَفَّقِ بِالصَّوَابِ
غَدَا هَارُونَ يُرْعَدُ بِالْمَنَايَا	وَيُبْرِقُ بِأُمْدَ كَرَّةِ الْقَضَابِ
وَرَايَاتِهِ يَحُلُّ النَّصْرُ فِيهَا	تَمَرُّ كَأَنَّهَا قَطَعُ السَّحَابِ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَفَرَتْ فَاسْلَمَ	وَأَبْشَرَ بِالْغَنِيمَةِ وَالْإِيَابِ

(الطبري، ١٩٣٩م، ص ٥٠١-٥٠٣؛ وأبوالعتاهية، ١٩٦٤م، ص ٦٥)

يقول: اعلموا أن الملك المنتصر هارون الرشيد قد فتح مدينة هرقله، وهو صائب في ما عمل من تخريب فيها.

- : بدأ هارون ينزل الموت على أعدائه، وصوته يشبه الرعد، ويلمغ سيفه الجازم كالبرق.

- : أعلام جيش هارون التي تبشر بالنصر الدائم تذهب بسرعة، كما تمشي الغيوم في السماء بخفة ورشاقة.

- : يا أيها المهدي! يا أمير المؤمنين! جاء النصر على أيدي المسلمين بقيادة هارون. فسأل الله الصحة لك فبشرك بالغنائم ورجوع

المسلمين وقائدهم سالمين.

وفي عهد هارون الرشيد جاوزت الحروب الخارجية آسيا الصغرى، فغزت قواته جزيرة قبرص، وأسرت منها ستة عشر ألفاً من بينهم أسقف الجزيرة، وامتدت الحروب إلى جانب الجنوبي الشرقي في الهند كذلك (الطبرى، ١٩٣٩م، ص ٥١٠). ومن العجيب أنه في هذا العصر - عصر القوة في حياة الدولة العباسية - بدأت بوادر انفصال أطراف عن الخلافة منذ أيام هارون الرشيد، أكبر حاكم؛ فالأمويون يحكمون في الأندلس، والأدارسة مستقلون في المغرب، والأغالبة في تونس، والطاهرية في خراسان يتمتعون بالحكم الذاتي (ابن خلدون، ١٩٧١م، ص ١٢؛ وابن الأثير، ب ١٩٦٥م، ص ٦٣؛ وبروكلمان، ١٩٧٤م، ص ٢٠٠).

١ - ٣ - بيئته الاجتماعية

نشأة أبي العتاهية صادفت مجتمعاً مليئاً بالمذاهب، وكان الشاعر ينتمي إلى طبقة الموالي، وكان لهذه الطبقة تأثير شديد في الحياة الاجتماعية حين ذاك؛ فبعد أن اشتد تأثيرهم في البلاط أصبحوا يعتزّون بحضارتهم وبجمهورون بعباداتهم وعقائدهم القديمة، حتى تأثرت لغة المجتمع العربي بهم وكثر الدخيل في اللغة (فك، ١٩٥١م، ص ١٠٠).

عندما أسست بغداد، كانت جديدة في كل شيء؛ في بنائها وسكانها ونشاطها. فوجه الحياة فيها لم يكن يشبه الوجه العربي القديم إلا بسبب ضعيف، فالملابس والأطعمة والأشربة والعادات كل ذلك كان متغيراً في المجتمع البغدادي، حتى الدم اعتراه تغيير كبير بعد أن امتزج الدم العربي بدماء الأجناس الجديدة، وخاصة الجنس الفارسي، وأصبحنا نجد مجتمعاً يكاد يكون مولداً من عرب وإماء؛ حتى قصور الخلفاء كانت تزخر بإماء للخليفة يعاشرن ويولدهن. ألم يكن المأمون من أم فارسية؛ كما كان أبوه هارون وعمه موسى من جارية بربرية (بروكلمان، ١٩٧٤م، ص ١٨٥؛ والطبرى، ١٩٣٩م، ص ١٥٨).

وعلى الرغم من هذا كله كان المجتمع عربياً؛ لأنه يتكلم ويكتب باللغة العربية، ولا يزال الأعاجم بحاجة إلى الانتماء إلى العرب بالولاء، ويعتبرون ذلك شيئاً يشرفون به (أمين، ١٩٥٦م، ص ٣٧ - ٣٩). وقد عبّر أبو العتاهية عن هذا المعنى عندما هجا والبة بن الحباب، وأنكر عليه أن يشرف بانتساب إلى العرب وهو أشبه بالموالي في قوله:

وَمِنَ الْمَحَالِ صَالِيَةٌ أَشْقَرُ	وَأَبْنُ الْحُبَابِ صَالِيَةٌ زَعَمُوا
أَلْوَانٌ يُخَسَّبُ مِنْ بَنِي قَيْصَرُ	مَا بِالْ مَنْ أَبَاؤُهُ عَرَبُ أَلْ
شُقْرًا أَمَا هَذَا مِنَ الْمُتَكْرَرُ؟	أَتُرَوْنَ أَهْلَ الْبُدُو قَدْ مُسَخُوا

(أبو العتاهية، ١٩٦٤م، ص ٢١٨)

يقول: يظنون أن ابن الحباب من أصل عربي. كيف يكون عربياً وهو أحمر البشرة أصفر الشعر؟!

- لماذا يسمي الناس الرجل الأحمر البشرة الأصفر الشعر رومياً؟

- هل رأيتم بين الأعراب رجلاً أحمر البشر أصفر الشعر؟ أليس بعجيب أن يدعي الأشقر أنه عربي؟!

مهما يكن، فقد كان الموالي أقوى العناصر التي عملت على تجديد الحياة الاجتماعية. فساعدهم على ذلك كثرتهم في المجتمع الجديد ونفوذهم السياسي. ففي هذا العصر غيّروا اللون العربي الذي كان سائداً في العصر الأموي إلى لون جديد فارسي، فأثاروا عواطف الناس وعقولهم، وهذا الأمر أدى إلى كثير من التأليفات التي تتعصب لنزعاتهم. مثل ما ألفه سهل بن هارون وعلّان الشعوبي وأبو عبيدة (ابن النديم، ١٣٦٦ هـ. ش، ص ٩٢، و٩٣، و١٧٥، و١٩٧).

تغلغلت هذه النزعة في مظاهر الإنتاج العلمي والأدبي، ولم تقف عند حدّ وضع القصص، بل تجاوزت ذلك إلى وضع الأحاديث الكثيرة وإسنادها زوراً إلى الثقات من الصحابة والتابعين (أمين، ١٩٥٦م، ص ٧٧، و٧٨). وكان مذهب الشيعة الذي نال حظاً كبيراً من الإقبال في العراق وفارس، أعطى فرصة طيبة للكثير من الموالي (عبدالعال، ١٩٥٤م، ص ٦).

بدأ المجون منذ أوائل هذا العصر بشكل واسع بالعراق في الكوفة. يقول ابن المعتز (١٩٥٦م):

كان أبوالعباس السفاح مولعاً بأبي دلامة، لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً لحسن أدبه وجودة شعره ومعرفته بأخبار الناس وأيامهم. وكان أبودلامة ماجناً، ويأتي حانات الخمارين. فعاتبه أبوالعباس على ذلك، فاعتذر أبودلامة، فألزمه أبوالعباس ألا يفارقه، وكان يصلي معه الصلوات كلها. ففي ذلك يقول أبودلامة:

أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزُنَيْ بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصْرِ، مَا لِي وَبِالْقَصْرِ
أَصَلِّي بِهِ الْأُولَى مَعَ الْعَصْرِ دَائِباً فَوَيْلِي مِنَ الْأُولَى وَوَيْلِي مِنَ الْعَصْرِ
وَيَحْبِسُنِي عَنِ مَجْلِسِ أَسْتَلْدَهُ أَعْلَلُ فِيهِ بِالسَّمَاعِ وَبِالْحَمْرِ

فلما سمع أبوالعباس الأبيات قال: «والله ما يفلح هذا أبداً؛ فذروه» (ص ٦٠، و٦١).

يقول: هل أتاك حديث الخليفة أنه أجبرني أن أصلي في مسجده وأسكن في قصره؟ ما شأنني وقصر الخليفة؟!

- : إنني مجبرٌ أن أقيم صلاة الظهر والعصر في القصر. فلقد حلَّ الشرُّ بي من إقامة صلاة الظهر والعصر في القصر.

- : يسجنني الخليفة في القصر ويمعني من مجلس الغناء واللهو واللعب الذي أريد أن أستمتع به، وأكرر فيه استلذاذي بالسَّماع والحمر.

١ - ٤ - بيئته العقلية:

تأثرت حركة الزهد في هذا العصر بالأفكار الهندية والمانوية، ونجد صدى هذا التأثير واضحاً في شعر أبي العتاهية، حين يقول:

يَا مَنْ تَشَرَّفَ بِالدُّنْيَا وَطَيْبَتْهَا لَيْسَ التَّشَرُّفُ رَفَعَ الطَّيْنِ بِالطَّيْنِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَانظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مَسْكِينٍ

(أبوالعتاهية، ١٨٨٨م، ص ٢٧٤؛ وضيف، ١٩٦٠م، ص ٢٤٢)

يقول: يا أيها الإنسان الذي يفتخر بمقامه الدنيوي وما في الدنيا من أمور دنيئة، تشبه الطين الذي خلق منه، لا يمكن أن يتشرف من خلق من الطين بالطين.

- : إذا أردت أن تعرف أفضل الناس وأحسنهم، فعليك بالتعرف على ملك ترك الملك والأمور الدنيوية، واختلط بالمساكين وهو بوذا.

كان أثر الفرس في الحياة العقلية أثراً قوياً وخطيراً. فعبداً بن المقفع كان مضطرباً باللغتين، وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس أشهرها كتاب *كلياته* و*دمته* (ابن النديم، ١٣٦٦هـ. ش، ص ١٩٦). وكان من الذين قاموا بالترجمة من الفارسية إلى العربية الفضل بن سهل، ظلّ ملازماً للبرامكة حتى نُكبوا، ثم لزم المأمون (جهشيارى، ١٣٤٨هـ. ش، ص ٢٩٣ - ٢٩٤). ومن هؤلاء الترجمة أبان بن عبد الحميد اللاهقي الذي ترجم كتاب *كلياته* و*دمته*، ونظمه شعراً ليسهل حفظه على جعفر بن يحيى البرمكي (شريف، ١٩٥٤م، ص ٤٧ - ٤٨)؛ فترجمت الآثار الفارسية إلى العربية على أيدي هؤلاء الذين برعوا في اللغتين العربية والفارسية، ولا شك في أن أبوالعتاهية تأثر بهذه الآثار ولم يكن وحده، وإنما تأثر بها كثيرون غيره من الشعراء والأدباء (أمين، ١٩٥٦م، ص ١٦٩).

برزت في هذا العصر أسماء علماء في مختلف فروع المعرفة نكتفي بذكر بعضهم. فإذا تجاوزنا عن جابر بن حيان وما ألف من تأليفات يدهش الإنسان لكثرتها، وجدنا محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الفضل الأكبر في علمي الحساب والجبر، والكندي الفيلسوف العربي وكتبه في الفلسفة والمنطق و... (ابن النديم، ١٣٦٦ هـ. ش، ص ٤٦٥ - ٤٧٢، و٦٣٦ - ٦٤٠).

وفي هذا العصر نشط علماء اللغة والأدب في تقليد علماء الحديث والتاريخ، وخاصة في نقد الرجال وتشريحهم. فشرح أبو عبيدة وقطرب وحماد وخلف، وألفت كتب التراجم وأخبار الشعراء، فيذكر ابن النديم للمدائني (م. ٢١٥ هـ) ثلاثين كتاباً في هذا الباب (١٣٦٦ هـ. ش، ص ١٧٢). ويعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدي قمة لهذا العصر في علوم اللغة والنحو والعروض، وأكمل عمله الرائع تلاميذه. ولا شك أن الخلاف بين البصريين والكوفيين في ميدان النحو (ابن خلكان، ١٩٤٨ م، ص ١٧) كان له أكبر أثر في نموّ بحوثه وارتقائها. فكان أعظم نتاج وصل إلينا *الكتاب لسبويه* تلميذ الخليل. وبعد هذا بدأت مباحث النحو منهجاً جديداً، وهو الخلط بين مذهبي الكوفة والبصرة، وتكوّن المذهب البغدادي.

٢ - حياة أبي العتاهية وشعره

٢ - ١ - أصله ولقبه

زعم بعض المؤرخين أن أبا العتاهية من أصل عربي، فبعضهم نيكلسون وهوار؛ وقال أبو الفرج الأصفهاني - ووافقه ابن خلكان - أنه من أب عنزي وأم منسوبة إلى بني زهرة (المقدسي، ١٩٦٣ م، ص ١٤٩). قال صاحب الأغاني: «كان أبو العتاهية قضيماً (أي دقيق العظم، قليل اللحم)، أبيض اللون، أسود الشعر، له هيئة حسنة، ولباقة، وحصافة» (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٦ م، ص ١٠ - ١١).

وجاء في *طبقات الشعراء* أنه كان ضعيف البنية (ابن المعتز، ١٩٥٦ م، ص ٢٣٠)؛ قالت عتبة إني لأرى هيئة جميلة، وضعفاً ظاهراً ولساناً فصيحاً، ورجلاً بليغاً (المسعودي، ١٩٧٣ م، ص ٣٢٩). أما كيف أطلق عليه لقب أبي العتاهية؟ فقال صاحب الأغاني إن الخليفة المهدي قال يوماً لأبي العتاهية: أنت إنسان متحللق معته، فاستوت له من ذلك كنية، وسارت له في الناس (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٦ م، ص ٤).

٢ - ٢ - نشأته في الكوفة

انتقل أبو العتاهية إلى الكوفة، وأقام ونشأ هناك. وكان بالكوفة كثير من الشعراء من أمثال مطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب وغيرهم ممن كانوا يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة (الثعالبي، ١٩٠٨ م، ص ٤٠٧)؛ وأبو الفرج الأصفهاني، ب ١٩٨٦ م، ص ٣٠٥ - ٣٠٦). اجتاز أبو العتاهية في أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به في الكوفة ويبيع منه، اجتاز بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر، فسلم وقال أقول شيئاً فتجيزونه، فإن فعلتم فلکم عشرة دراهم، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم، وجعل رهنه تحت يد أحدهم. فقال أجزوا:

ساكني الأجدات أنتم

وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع إذا بلغته الشمس، ولما لم يجزوا البيت، غرموا الخطر، فتممه:

مثلنا بالأمس كُنْتُمْ

أزبحه شُمْ أمْ حَسْرَتُمْ

ليت شعري ما صنعْتُمْ

وهي قصيدة طويلة في شعره (أبوالفرج الأصفهاني، ١٩٦٦م، ص ٥١؛ وأبوالعتاهية، ١٨٨٨م، ص ٢٤٦).

يقول: يا أيها الموتى الذين سكتتم القبور! كنتم قبل هذا مثلنا تعيشون بين الناس.

- : لا أدري ما ذا فعلتم؟ هل رجتم في تجارتكم أم كنتم من الخاسرين؟

وهذا النص له أهمية كبيرة في تاريخ حياته الفنية.

٢ - ٣ - حياته في الحيرة وبغداد

كان أبوالعتاهية يهوي امرأة نائحة من أهل الحيرة، يقال لها سعدة، ولعله كان ينظم لها الشعر في الموت لتنوح به على من يموت، حتى حدث ما أدى إلى الخلاف بينهما وهجائهما، وله فيها شعر يفحش فيه إفحاشاً قبيحاً، مما أثار مولاهما، فنهاه عن أن يتعرض لها (أبوالفرج الأصفهاني، ١٩٦٦م، ص ٢٧)، فهجا أبوالعتاهية مولاهما عبدالله بن معن هجاء مقذعاً، فغضب عبدالله وضربه مائة سوط (ضيف، ١٩٦٠م، ص ٢٣٨ - ٢٣٩). ثم ذهب إلى بغداد في أوائل أيام خلافة المهدي فمدحه وفي ذلك يقول:

أَلَا مَا لِسَيْدَتِي مَا لَهَا أَذْكَتْ فَأَجْمَلُ إِدْلَاهَا

فأصبح الشاعر من مقرّبي البلاط (زيدان، ١٩٩٦م، ص ٣٧٢؛ وأبوالعتاهية، ١٨٨٨م، ص ٣١١).

يقول: ما خطب محبوبتي؟ ما بها تَعَنَّجَتْ؟ وما أجمل تَعَنَّجَهَا!

أهدى أبوالعتاهية إلى المهدي في يوم نيروز برنية صينية، فيها ثوب ممسك فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا مَعْلُوقَةٌ أَلَلَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا
إِنِّي لَأَيَّاسٌ مِنْهَا ثُمَّ يُطْمَعُنِي فِيهَا احْتِقَارُكَ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

فطلب عتبة جارية المهدي منه، فهمّ أن يدفع إليه عتبة. فقالت له: يا أمير المؤمنين! مع خدمتي تدفني إلى بائع جرار مكتسب

بالشعر؟ فبعث إليه: أما عتبة فلا سبيل لك إليها، وقد أمرنا لك بملء البرنية مالا (المسعودي، ١٩٧٣م، ص ٣٢٦ - ٣٢٧).

يقول: أحبّ شيئاً من هذه الدنيا وأسأل الله ثمّ الخليفة أن يعطيني ما أحبّ.

- : بعد جهد جهيد لقد يئست من الوصول إلى حبيبتي، ولكن احتقارك للدنيا وما فيها يؤمّني أن أصل إليها.

والذي يتبع قصة غرام أبي العتاهية بعتبة يكاد في بعض الأحيان يصدّق إخلاصه في هذا الغرام؛ لأننا نراه يسأل المهدي، ويعيد

السؤال، ويتوصّل إليه بوسائل مختلفة، ثمّ نراه يتحمّل صنوفاً من الألم والعذاب؛ فمرة نجد الخليفة ينفيه عن بغداد إلى الكوفة،

ولكنه يظلّ يشبّب بها ويكتّي باسمها في غير تصريح (السابق، ص ٣٢٦)؛ ونراه مرة أخرى وقد ضرب بالسياط من أجلها، ونراه

تارة وقد أدخل إلى السجن (ابن قتيبة، ١٩٦٤م، ص ٦٧٦).

٢ - ٤ - ثقافته ومذهبه

لقد استطاع أبوالعتاهية أن يصل إلى منزلة في القصر وبين الشعراء. والرجل الطموح لا يتخلّى عما كسب بكفاحه إلا أن يكون

ذلك في سبيل الارتقاء إلى منزلة أعلى، فاستطاع أن يحتفظ بمكانته عند المهدي، واكتسب منزلة أعلى عند الهادي والرشيد

والمأمون. ولا شك في أنه ما كان يستطيع ذلك لو لم يكن راغباً في الثقافة. لقد تأثر تأثراً واضحاً بالمانوية حينما يرى في أصل التكوين

جوهريين متضادين؛ فمن المعروف أن الثنوية المانوية تقوم أساساً على هذين الجوهريين المتضادين؛ إذ يرى هؤلاء أن العالم نشأ عن

أصلين هما النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير، وعن الظلمة نشأ كل شر، وقد امتزج الخير امتزاجاً تاماً، وقد أطلوا في كيفية

هذا الامتزاج (ابن النديم، ١٣٦٦هـ. ش، ص ٥٨٤، و ٥٨٨).

الآبيات التالية تدل على تأثره بالمانوية فيقول:

الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ لِذَا يَتَجَاوُزُ لِذَا تَتَجَاوُزُ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَانِ

(أبوالفرج الأصفهاني، ١٩٨٦م، ص ٤١)

يقول: الخير والشر قرينان في هذه الدنيا ولكل منهما أثره.

- : كل إنسان له طبيعتان متضادتان، هما الخير والشر.

حاول نيكلسون (١٩٤٧م، ص ٢٩٧) أن ينفي عن أبي العتاهية قوله بالتشيع مستدلاً على ذلك بأنه يقول في شعره:

بَلْ أَيْنَ أَهْلِ الثَّقَى وَالْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ جَاءَتْ بِفَضْلِهِمُ الْآيَاتُ وَالسُّورُ
أُعِدُّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَوْلَهُمْ وَنَادِ مَنْ بَعْدُ فِي الْفَضْلِ أَيَا عُمَرُ
وَعُدَّ مَنْ بَعْدَ عُثْمَانَ أَبَا حَسَنِ فَإِنَّ فَضْلَهُمَا يُرَوَى وَيُدْرَكُ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٤م، ص ١٠٤)

يقول: أين الأتقياء والأنبياء والذين نزل القرآن بفضلهم؟

- : أولهم فضلاً أبو بكر الصديق ثم عمر.

- : ثم اذكر عثمان وبعده علي بن أبي طالب، وفضلهما معروف لا يخفى على أحد.

٢ - ٥ - زندقته وزهده

نجد في كتاب الشعر والشعراء وطبقات الشعراء أنه يرمى بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ وذكر الموت والحشر والنار والجنة، والذي يصح لابن المعتز أنه كان ثنويًا (ابن قتيبة، ١٩٦٤م، ٦٧٥؛ وابن المعتز، ١٩٥٦م، ص ٢٢٨).

عندما رآه منصور بن عمار في قوله في عتبة:

كَأَنَّ عَتَابَةَ مِنْ حُسْنِهَا دُمَيْتُ قَسٍ قَتَنْتُ قَسِهَا
يَا رَبِّ لَوْ أَنْسَيْتَنِيهَا بِمَا فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ لَمْ أَنْسَهَا

قال: «يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون» (أبوالفرج الأصفهاني، ١٩٨٦م، ص ٥٥؛ وأبوالعتاهية،

١٩٦٤م، ص ٢٣٤).

يقول: كأن عتبة من حسنها وجمالها صنم قسيسٍ قد فتن قسيسه.

- : إلهي، لو أعطيتني ما في الجنة، وحاولت أن تُنسيني عتبة، لم أنسها.

قال رجاء بن سلمة: سمعت أباالعتاهية يقول: «قرأت البارحة: "عم يتساءلون"، ثم قلت قصيدة أحسن منها» (أبوالفرج الأصفهاني، آ

١٩٨٦م، ص ٣٨). وكان ماهراً في الخداع، وخاصة بشعره الذي كان يستخدمه سلاحاً حتى مع الخلفاء؛ فقد سأله الرشيد: الناس

يزعمون أنك زنديق، فقال: «كيف أكون زنديقاً وأنا القائل:

أَيَا عَجَبِي! كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهَ هَ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاهِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٤م، ص ١٢٢؛ والخطيب البغدادي، ب ١٩٣١م، ص ٢٥٣)

يقول: عجباً من العصاة! كيف يعصون الله وينكرون وحدانيته؟

- : والحال أن كل شيء في هذا الكون - متحركاً كان أم ساكناً - يدلّ على وحدانيته.

بدأ أبو العتاهية يتزهد حينما ورد الرشيد الرقة؛ لأنه فشل بعد عدة محاولات في الظفر بعتبة، فأظهر الزهد وترك قول الشعر إلا في الزهد (ابن الأثير، ب ١٩٦٥م، ص ٦١؛ والمسعودي، ١٩٧٣م، ص ٣٦٧ - ٣٦٩).

٢ - ٦ - كثرة أشعاره والعناية بجمعه

ليس بين أيدينا ديوان كامل يجمع شعر أبي العتاهية، والسبب هو السنين الطويلة التي تفصل بيننا وبينه، ونظرة الرواة إليه، وكثرة أشعاره؛ وأبو العتاهية كان كثير الشعر، فيقول ابن المعتز (١٩٥٦م): «أشعاره كثيرة، إلا أنها مشهورة موجودة» (ص ٢٣٤)؛ ويقول الخطيب البغدادي (ب ١٩٣١م) عنه: «هو أحد من سارقوا له، وانتشر شعره ولم يجمع كل ديوانه» (ص ٢٥٠). ويقول ابن عساكر (١٣٣٢هـ): «له عشرون ألف بيت» (ص ٢٦٠). ويقول ابن المنصور (١٩٢٤م): «له ستعشر ألف بيت» (ص ٦٣)؛ لكننا لا نعثر من ذلك كله إلا على القليل الذي يدفنا إلى أن نقدر في غير شك أن أكثر شعره ضاع بأسباب شتى.

وإذا لم يقدر لأبي العتاهية أن يكون له ديوان شعر في حياته، فبعد موته جمع بعض الأدباء بعض أشعاره؛ يقول ابن النديم (١٣٦٦هـ. ش): «أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور جمع من شعر أبي العتاهية اختيارات في كتابه المسمى اختيار شعر أبي العتاهية» (ص ٢٤١ - ٢٤٣).

كان بين يدي أبي الفرج الأصفهاني كتاب لأبي عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم مسمى بالبارع في أخبار الشعراء المولدين، وهو يكتب أخبار أبي العتاهية وأشعاره (١٩٨٦م، ص ٣٠، و ٣٥). ينقل أبو الفرج في أغانيه بعض أخبار أبي العتاهية وأشعاره عن أبي العباس أحمد بن عبد الله بن عمّار الثقفي الكاتب من كتابه المسمى كتاب أخبار أبي العتاهية (السابق، ص ٢٧).

يذكر ابن النديم (١٣٦٦هـ. ش) أن الصولي في كتابه الأوراق عوّل تأليفه على كتاب محمد بن موسي البيدي في الشعر والشعراء، بل نقله نقلاً وانتحلّه (ص ٢٤٨ - ٢٤٩)، وبذلك يصبح الفضل لمحمد بن موسي في وصول بعض أشعار أبي العتاهية إلينا قبل الصولي. يذكر ابن خلكان (ب ١٩٤٨م): «لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي كتاباً جمع فيه أخبار جماعة من الشعراء» (ص ٤٨٠)، وبرغم أن المصادر لا تشير صراحة إلى أنه عني بجمع أشعار أبي العتاهية، إلا أن أكثر ما روي عنه في الأغاني يسجل له فضلاً في الميدان. وألف المسعودي كثيراً من المصنفات ذكر في بعضها شعراً وأخباراً لأبي العتاهية (الفاخوري، ١٩٨٧م، ص ٥٦١).

٣ - موضوعات شعره

٣ - ١ - الغزل

استهلّ أبو العتاهية حياته العاطفية بحبّ سعادى وتشبيها، وليس بين أيدينا منه شيء. فلعل أبا العتاهية أراد له هذا الموت بعد أن طلب الزهد، غير أن هذا الهوى كامناً في قلبه. فحينما يرى عتبة ماضية إلى السوق، تثور بنفسه أحاسيس الهوى حتى كأنه أصبح لا همّ له إلا هذا الحب الجديد الذي يذيب جسمه؛ يقول:

أَذَابَ الْهَوَى جَسْمِي وَعَظْمِي وَقُوَّتِي
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّوحُ وَالْبَدَنُ النَّضْوُ

(المسعودي، ب ١٩٧٣م، ص ٣٨)

يقول: ذوّب الحب جسمي وعظامي وقوّتي، فلم يبق مني شيء إلا روحي وجسمي النحيف.

٣-٢- المدح

عناصر المدح عند أبي العتاهية تنكئ على وصف الممدوح بالمهابة والجلال، جلال التاج؛ والكرم السريع الذي يسبق الريح؛ وعلى النسب الذي يصله بالرسول. مدة خلافة الهادي كانت قصيرة وقلما ورد إلينا من شعر أبي العتاهية في مدحه، ويكثر في مدح الرشيد لكثرة المناسبات. فكشف لنا عن عناصر جديدة في شعره؛ إذ تبدو في هذا الشعر قدرة على الوصف:

جَرى لَكَ مِنْ هَارُونَ بِالسُّعْدِ طَائِرَةٌ إِمَامٌ اعْتَزَمَ لَا تُخَافُ بَوَاهِرَةٌ
إِمَامٌ لَهُ رَأْيٌ حَمِيدٌ وَرَحْمَةٌ مَوَارِدُهُ مَحْمُودَةٌ وَمَوَادِرُهُ

(أبوالعتاهية، ١٩٦٤م، ص ٢١٣)

يقول: رأيت من هارون السعادة؛ لأنه ملك مبارك. فهو إمام ذو عزم وثبات رأي، ومع هذا لا يخاف من غضبه.

- : فهو ذو رأي حميد، ورحمة واسعة، وجميع أعماله محمودة.

٣-٣- الزهد

تجربة حب عتبه كانت من التجارب التي هزّت كيانه، بحيث لبس بعدها الصوف، وقال:

قَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطِيِّ رِحَالِي
وَيَسْتُ أَنْ أَبْقَى لِشَيْءٍ نَلْتُ وَمَا مَافِيكَ يَا دُنْيَا، وَأَنْ يَبْقَى لِي

(السابق، ص ٣٢٥)

يقول: يا دنيا! قد انقطعت أواصر آمالي منك، فقررت أن أترك الدنيا وما فيها.

- : ويست أن أبقى حياً أرزق في هذه الدنيا، أو تبقى الدنيا وما فيها لي.

وهي قصيدة طويلة لها أهمية خاصة في حياته النفسية والفنية.

صورة الزهد في ذهن أبي العتاهية لا تخلو من آثار غير إسلامية. فهو يرى الزهد اعتزالاً للحياة والناس وابتعاداً عنهم، فدعوته

تشبه الرهبنة إذ يقول:

رَغِيفٌ خُبْزٍ يَابِسٍ تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ
وَكُوْزُ مَاءٍ بَارِدٍ تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ
وَعَرْفَةٌ ضَافِيَةٌ نَفْسُكَ فِيهَا خَالِيَةٌ
أَوْ مَسْجِدٌ يُفْزِلُ عَنِ السُّورَى فِي نَاحِيَةٍ
تَدْرُسُ فِيهِ دَفْتَرًا مُسْتَنْدًا فِي سَارِيَةٍ
مُعْتَبِرًا بِمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ
خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي فَيِّ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ

(السابق، ص ٤٨٨)

يقول: لو قنعت برغيف خبز يابس تشبع به بطنك وتبتعد عن الناس،

- : ووجدت عين ماء صافية، وتأخذ منها إناء ماء بارد لتشربه،

- : ورضيت بغرفة صغيرة لتسكن فيها مرتاح البال،

- : واتخذت مسجداً لصلواتك بعيداً عن الضوضاء وضجيج الناس ،
- : وقرأت في هذا المسجد كتاباً عن سيرة المؤمنين المستندة ،
- : وكنت ممن يعتبر بتاريخ الماضين الذين عاشوا في القرون السابقة ،
- : هذا أفضل لك من ساعات كثيرة في ظلال جدران البروج المشيدة.

٣ - ٤ - الموعدة

كانت في عصر أبي العتاهية حركة وعظ كبيرة، ويذكر الجاحظ (١٩٤٨م) منهم: صالحاً المرّي، والثقفى، وأبالأسود، وأبالعلاء (ص ٣٦٤). وكثيراً ما كان الرشيد يطلب إلى أبي العتاهية أن يعظه، فيقول محمد بن أبي العتاهية: قال الرشيد لأبي: عظني. فأنشده:

لا تَأْمَنِ المَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ إِذَا تَسْتَرَّتْ بِالأَبْوَابِ وَالْحَرَسِ
وَأَعْلَمُ بِأَنْ سَهَامَ المَوْتِ قاصِدةً لِكُلِّ مَدْرَعٍ مِنَّا وَمُثْرِسِ

قال: فبكى الرشيد حتى بلّ كُفَّه (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٦م، ص ١١٢).

يقول: لا تقدّر أن تحجب نفسك من الموت، ولو جعلت نفسك بحماية الأبواب والحراس.

- : وعليك أن تعرف أن نبال الموت آتية إليك، ولا يقدر أحد أن يجرس نفسه من هذه النبال، ولو كان محجوباً بالمتارس.

كان شعره في المواعظ يلقي الإقبال من العامة والخاصه، فكانوا يلتفتون حول أبي العتاهية ويشكون إليه أحوالهم، فيعظهم بشعره (أبو الفرج الأصفهاني، ١٩٨٦م، ص ٩٠ - ٩١)، ويذكرهم بالموت ويصوره أشنع صورة. يقول مثلاً:

المَوْتُ حَوْضٌ لَا محالَةَ دَوْنَهُ مُرٌّ مذاقُهُ كَرِيهَةٌ مَشْرِبُهُ

(أبو العتاهية، ١٨٨٨م، ص ٣٣)

يقول: الموت شريعة لا حيلة لك إلا النزول فيها؛ طعم الموت مرٌّ ستمتئز النفس من شربه.

٣ - ٥ - الحكمة

عنصر الحكمة من العناصر المهمة التي يقوّم أبو العتاهية شعره بها، فدخلت أبياته في كتب الآخرين وصارت أمثالاً، فهذا أنيس المقدسي (١٩٦٣م) يذكر أبياتاً من حكمه:

أَجَلُّكَ قَوْمٌ حِينَ صرْتَ إلى الغنى وَكُلُّ غَنِيٍّ فِي العيونِ جليلٌ

(ص ١٦١)

يقول: عندما أصبحت غنياً، صرت جليلاً في عيون الناس، وكل إنسان غنيٌّ كبيرٌ في عيون الناس.

وزين الدين الرازي (١٩٨٧م) يأتي بأبيات منه في أمثاله. فمن حكمه التي تشيد بفضل القناعة قوله:

إِنْ كانَ لا يُغْنِيكَ ما يَكْفِيكَ فَكُلْ ما فِي الأَرْضِ لا يُغْنِيكَ

(ص ٣٦)

يقول: إذا لم تكن القناعة شيمتك، فكل ما يوجد على وجه البسيطة لا يمنحك الغنى والقناعة.

ومن مصادر الحزن الطويل عنده طلب الملدّات؛ يقول:

وَلرُبَّ شَهْوَةٍ ساعَةٍ قَدْ أورثتْ حُزناً طويلاً

(السابق)

يقول: حبُّ الشهوات يسبب همًّا وغمًّا للإنسان لا يُعدُّ ولا يُحصى.

ينصب أبو العتاهية نفسه في الحكمة واعظاً يملئ على الناس عظاته، كما يقول:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ

(السابق، ص ٥٧)

يقول: إذا كان الفتى يملك وقتاً فارغاً، وتوفرت لديه النقود والأموال، يقع في مفسدة عظيمة.

وهذا هو يتحدث حول النفوس البشرية وطبائعها من حرص وطمع وحب الحياة والرئاسة؛ فنراه يقول:

رَأَيْتُ النَّفْسَ تَكْرَهُ مَا لَدَيْهَا وَتَطْلُبُ كُلَّ مُمْتَنِعٍ عَلَيْهَا

(السابق، ص ٨٣)

يقول: من طبائع النفوس البشرية أنها لا تقنع بما لديها وتكون دائمة الحرص على ما منعت منه.

ويحث على البر والصدق، ويوجه المواعظ إلى الناس، وكأنه يأخذ بأيديهم برفق، ويسير معهم متحدثاً عن نفسه أو عن غيره،

ثم يلتفت إلى السامع فجأة يوجه إليه الخطاب وكأنه يزرجه على تعلقه بالدنيا؛ يقول:

تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

(السابق، ص ١٥٣)

يقول: أراك تطلب النجاة من المهالك، لكنك لم تمهّد له أيّ تمهيد. فكل إنسان فيما يطلب يشبه السفينة التي لا تجري إلا إذا توفّر

لديها الماء. فلا يمكنها السير فيها على الأرض اليابسة.

٤ - الخصائص الفنية في شعره

٤ - ١ - الصياغة

البساطة والسهولة من سمات شعر أبي العتاهية، وهي وليدة طبعه. فاستطاع حقاً أن يحتلّ المكانة الشعبية التي كان ينشدها، بعد

أن احتلّ مكانة عالية في القصر عن طريق تلك السهولة والبساطة.

روى ابن المعتز (١٩٥٦م) قال: «أتى أبو العتاهية باب أحمد بن يوسف، كاتب المأمون فحجب عنه فقال:

مَتَى يَظْفَرُ الْغَادِي إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ وَنِصْفُكَ مَحْجُوبٌ وَنِصْفُكَ نَائِمٌ؟!

فسار بيته في الآفاق، وجعل الناس يتناشدونه» (ص ٢٣٣).

يقول: كيف تتوفّر رؤيتك للذين يريدون لقاءك وأنت تحجب نفسك منهم؟! كأنك تُخفي نصف جسمك، والنصف الثاني منك نائم!

ويروي صاحب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (١٩٨٦م): «فالناس لا يقنعون بالالتفات حول شعره في المسجد فحسب، وإنما

يسجلونه تسجيلاً» (ص ٤٩). لا شك أن خصائص ثلاثاً تميّز شعر أبي العتاهية هي: السهولة التي تحبب شعره للناس، والشعبية التي

توصله إلى نفوس العامة، ثم الموسيقى التي تُوفّر له الإيقاع الجميل الذي يتلائم مع الغناء.

٤ - ٢ - الموسيقى

كسر أبو العتاهية الأسوار التي تحيط بالأوزان التي صاغ فيها العرب شعرهم، فصاغ شعراً في قوالب جديدة (ضيف، ١٩٦٠م،

ص ١٩٤ - ١٩٥)؛ يقول أبو الفرج الأصفهاني (١٩٨٦م): «وله أوزان طريفة قالها مما لم يتقدمه الأوائل فيها» (ص ٤). ومن الأوزان

التي ابتكرها ما صاغ فيه قوله:

عَتَبَ مَا لِلخِيَالِ خَبَّرِينِي وَمَا لِي
لَا أَرَاهُ أَتَمَّانِي زَائِرًا مُذْ لِيَالِي

(ابن قتيبة، ١٩٦٤م، ص ٦٧٦)

يقول: يا عتبه! ماذا أصابني وماذا جرى لي مع الرؤيا؟

لماذا لا أراك في الرؤيا منذ ليلال؟

لا شك في أن أبا العتاهية كان مرهف الإحساس بالنسبة للموسيقى، ويظلّ هذا الشغف مالكاً عليه نفسه حتى وهو على فراش الموت. فقد روى أبو الفرج الأصفهاني (١٩٨٦م) أنه قيل لأبي العتاهية عند الموت: ما تستهي؟ فقال: أشتهي أن يجيء مخارق، فيضع فمه على أذني ثم يغتني:

سَيُعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسِي مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَمَدِي لِلخَلِيلِ خَلِيلُ

(ص ١١٤ - ١١٥)

يقول: سيطركني المحبوب وينساني وينسى حبي له، وسيجد الحبيب بعد موتي حبيباً.

فالإيقاع الموسيقي شيء يجري في طبع أبي العتاهية وفي دمه لا يفارقه إلا بمفارقة الروح. وقد سئل: هل تعرف العروض؟ فأجاب «أنا أكبر من العروض»، وبرهن على ذلك بما قاله يهجو قاضياً:

هَمُّ الْقَاضِي بِيَتُّ يُطْرِبُ قَالَ الْقَاضِي لَمَّا عُوتِبَ
مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا مُذْنِبٌ هَذَا عُذْرُ الْقَاضِي وَأَقْلِبُ

يريد أنه إذا قلبت لفظة عذر بالتصحيف تصير غدرًا. وهذا الوزن الشعري لم يكن معروفًا لدى العرب من قبله، وقد أخذه المحدثون من بعده وسمّوه دقّ الناقوس (الفاخوري، ١٩٨٧م، ص ٤٢٨؛ وأبو العتاهية، ١٩٦٤م، ص ٦٧).

يقول: لا يهتم القاضي إلا لبيت شعر يستلذ من سماعه، فأجاب القاضي عندما عاتبه وآتبه الناس:

- : أن لا يوجد في الدنيا إلا المذنب؛ هذا عذر القاضي. فإذا صُحِّفَ لفظ «عذر»، تغيرت الكلمة وأصبحت «غدر».

٤ - ٣ - خصائص خطابية

الوضوح من أظهر السمات الخطابية في شعر أبي العتاهية، ومن هنا كان إقبال الناس على شعره؛ فهو مولع بال تكرار في شعره، ولننظر مثلاً إلى قوله:

أَيَّتْهَا الْمُقَابِرُ فَيُـ كَ مَنْ كُنَّا نُنَازِلُهُ
وَمَنْ كُنَّا نَتَجَاوَرُهُ وَمَنْ كُنَّا نُعَامَلُهُ
وَمَنْ كُنَّا نُعَاشِرُهُ وَمَنْ كُنَّا نُدْخِلُهُ

(أبو العتاهية، ١٨٨٨م، ص ٢٢٩)

يقول: يا أيتها المقابر! قد سكن فيك من الناس من كنا في زمن حياتهم نتنازع معهم؛

- : وقد سكن فيك من كنا نبيع عليهم بضاعتنا ونشتري منهم ونتعامل معهم؛

- : وقد سكن فيك من الناس من كنا نجلس معهم ونذهب إلى بيوتهم ونتكلم معهم.

ومن السمات الخطابية في شعره حديثه عن القرون الأولى، وإشارته إلى بعض الأشخاص والأحداث التاريخية التي تلفت الأذهان إلى الماضي، فيقول:

سَيُفِينَا الَّذِي أَفْنَى جَدِيْسًا وَأَفْنَى قَبْلَنَا إِرْمًا وَطَسْمًا

(السابق، ص ٢٤٩)

يقول: سُميتنا من أمات جدیس وإرم وطسم، وكل أولئك الذين عاشوا من قبل.

ويقول:

وَأَيْنَ كَسْرَى أَنْوَشْرَوَانُ مَالٍ يَهْ صَرَفُ الزَّمَانِ وَأَفْنَى مُلْكُهُ الْغَيْرُ

(السابق، ص ١٠٤)

يقول: إلى أين ذهب كسرى أنوشروان العظيم الذي ذهب حوادث الزمان بعرضه وزحزحته عن الملك وأفتته؟

٤ - ٤ - فلسفته

يقول دي بور (١٩٣٨م):

وتتلخص فلسفته في أن يسير الإنسان عقله بمحذر وارتياح، وأن يجعل الزهد خير واقٍ له من الآثام، على أن الذين عندهم شيء من الفهم للحياة ولهم قدرة على أن يتذوقوا شعر الطبيعة، لا يسرهم الكثير مما لأبي العتاهية من شعر يدعو فيه إلى الإعراض عن الدنيا (ص ١٣٢).

يرى الدكتور طه حسين أن أبا العتاهية - على كثرة ما استعان بالدين في زهده الذي ملأ به ديوانه - كان فاسقاً مشتهراً بالمجون (حسين، ١٩٥١م، ص ٢٢٥ و ٢٢٧). ويرى هيوار^١ (١٩٣١م) أنه متأثر بعناصر فارسية وفلسفة يونانية (ص ٧٤)، ويؤكد جولدتسهير (د.ت) أنه متأثر بعناصر هندية ويستشهد من شعره بهذين البيتين:

يَا مَنْ تَشَرَّفَ بِالدُّنْيَا وَطَيَّبَتْهَا لَيْسَ التَّشَرُّفُ رَفَعَ الطَّيِّبِ بِالطَّيِّبِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَانظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ وَسَكِينِ

وقال: أوليس هذا هو بوذا؟ (ص ١٤٢).

والمبرد (د.ت) من الذين تعقبوا شعر أبي العتاهية، فيقول عنه: «لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الأخبار والآثار، فينظم ذلك الكلام المشهور»، فيستشهد بالأبيات التالية:

يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ لَوْ فَكَّرُوا وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ أَبْصَرُوا
وَعَبَّرُوا الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِهَا فَإِنَّمَا الدُّنْيَا لَهُمْ مَعْبَرُ
مَا بَالُ مَنْ أَوْلَهُ نُطْفَةً وَجِيْفَةً أَخْرَهُ يَفْحَرُ

فيرى أن البيت الأول مأخوذ من قول لقمان لابنه: «يا بني لا ينبغي لعامل أن يخلي نفسه من أربعة أوقات، فوقت منها يناجي فيه ربه...»، والبيت الثاني مأخوذ من قول الحسن بن علي عليه السلام: «اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها لا تعمرها»، والبيت الثالث مأخوذ من قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما لابن آدم والفخر؟! وإنما أوله نطفة وآخره جيفة» (ص ٢٣٩ - ٢٤١).

يقول: أمر الناس عجيب! لو فكّر الناس وأبصروا وحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا وتركوا الدنيا لحظة وفكروا في الآخرة، لرأوا أن هذه الدنيا بمنزلة جسر إلى دار القرار.

- : ما لهؤلاء الناس الذين هم خلقوا من نطفة ضعيفة ، وبعد موتهم يصبحون جسداً فاسداً تنناً ، يفخرون بالذي ليس له

دوام وبقاء؟!

٥ - مكانته الأدبية

٥ - ١ - أثر شعره في الآخرين

لعل أول ما نلقاه من أثر لأبي العتاهية إنما نلقاه في ولده ، محمد ، وهو الملقب بالعتاهية. فيقول عنه الخطيب البغدادي (١٩٣١ م):
«اسمه محمد ، وكنيته أبو عبد الله ، ويلقب عتاهية ؛ وكان شاعراً هذا طريقة أبيه في القول في الزهد ، وكان ناسكاً» (ص ٣٤ - ٣٥). ولنتأمل الآن بعضاً من شعره حيث يقول :

قد أفلح السالم الصموت كلام راعي الكلام قوت
ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوت
يا عجباً لامرئ ظلوم مستيقن أنه يموت

(أبو الفرج الأصفهاني ، ١٩٨٦ م ، ص ٩٢)

يقول : وصل قليل الكلام إلى كل أهدافه ، وكلام العارفين يشبه الطعام الذي فيه حياة البشر.

- : لا نحتاج أن نأتي بجواب لكل كلام ؛ أفضل جواب للكلام الذي لا يروقنا هو السكوت.

- : أعجب من الظالم الذي يعرف أنه لا محال سوف يموت وسيرى جزاء عمله!

ومن الشعراء الذين أدركوأ أبا العتاهية وتأثروا به محمود بن حسن الوراق الذي أكثر من قول الشعر في الزهد والمواعظ والحكم.

يقول :

تعصي الإله وأنت تُظهِرُ حُبَّهُ هذا لعمري في القياسِ بديعُ

(فروخ ، ١٩٨٥ م ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨)

يقول : أقسم بعمري أن أمرك عجيب ؛ لأنك تقول إنك تُحبّ الله ، لكنك تعصي ما أمر به الله. كيف يكون هذا؟!

والمتنبى متأثر في جوانب شتى من فنه الشعري بأبي العتاهية ، فإذا قال أبو العتاهية :

فَمَا أَفَةُ الْأَجَالِ غَيْرُكَ فِي الْوَعَى وَلَا أَفَةُ الْأَمْوَالِ غَيْرُ حَبَائِكَا

(يقول : إنك في ساحة القتال تبعد الأعداء ، وفي قصرك تبعد الأموال بكرمك وجودك) ، وجدنا صدى ذلك في قول المتنبى :

ولا موت إلا من سنانك يُتقى ولا رزق إلا من يمينك يُقسَمُ

(الجرجاني ، ١٩٥١ م ، ص ٣١٨ - ٣١٩)

يقول : لا يخاف الموت إلا من سلاحك ، ولا يخاف المال إلا من جودك لأنه يبدي المال ، ولا يوجد رزق إلا ما أمرت به وجاء

على يدك.

ومثله نجده حين يقول أبو العتاهية :

إن المطايا تشتكك لأنها قطعت إليك سبباً ورمالاً

(يقول: إن الخيل والنوق تشتكى منك؛ لأن كرمك جلب الناس إليك من كل فج عميق، فها هم يركبون الخيل والنوق ويتعبونها ليصلوا إليك)، نجده عند المتنبي في قوله:

قُصِدَتْ مِنْ شَرْقِهَا وَمَغْرِبِهَا حَتَّى اشْتَكَّتْ الرُّكَابُ وَالسُّبُلُ

(السابق، ص ٣٠٥)

يقول: تشتكي الطرق والآبال منك؛ لأن الناس الذين يأتون لرؤيتك قد أتعبوها من كثرة الحجى إليك.

٥ - ٢ - آراء فيه

استطاع أبو العتاهية أن يحظى بمكانة عالية بحيث كان العامة والخاصة - كالخلفاء - يرفعونه درجات عالية؛ أما العامة فكانوا يفهمون شعره في سهولة، وأما الخاصة فقد كانوا يعرفون لأبي العتاهية قدره في الشعر. ولا نعجب إذا حدثنا ابنه العتاهية: «كان أبي لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر» (أبو الفرج الأصفهاني، آ ١٩٨٦ م، ص ٦٧). ولم تقف منزلته الفنية عند العرب، وإنما اتصلت شهرته بسمع ملك الروم، فقدم رسول الملك الروم يسأل الرشيد أن يوجه إليه بأبي العتاهية، فكلم الرشيد أبو العتاهية في ذلك، فاستغفى منه وأباه (السابق، ص ١١٠ - ١١١).

بقي أن نعرف رأي العلماء والأدباء في أبي العتاهية؛ قال جعفر بن يحيى: «أزعم أن أبا العتاهية أشعر أهل هذا العصر». قال يحيى بن زياد الفراء: «هو والله أشعرهم عندي» (السابق، ص ١٥). أما أبو نواس فإنه كان يقدر أبا العتاهية، فهو الذي يقول عنه: «والله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوي وأنا أرضي» (السابق، ص ٧٥؛ والخطيب البغدادي، ب ١٩٣١ م، ص ٢٥١)؛ وابن الأثير (١٩٥٩ م) يرى شعر أبي العتاهية كالماء الجاري في رقة ألفاظ ولطافة سبك، وليس بركيك ولا واه (ص ٢٤٩ - ٢٥٠).



المصادر والمراجع

أ) العربية

١. ابن الأثير، ضياء الدين نصرالله بن محمد. (١٩٥٩ م). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** (ج ١). مصر: [د. ن.].
٢. ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد. (آ ١٩٦٥ م). **الكامل في التاريخ** (ج ٥). بيروت: [د. ن.].
٣. —. (ب ١٩٦٥ م). **الكامل في التاريخ** (ج ٦). بيروت: [د. ن.].
٤. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن محمد. (١٩٠٧ م). **الأصابة في تمييز الصحابة** (ج ٦). القاهرة: [د. ن.].
٥. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (١٩٧١ م). **كتاب العبر** (ج ٤). بيروت: [د. ن.].
٦. ابن خلكان، أحمد بن محمد. (آ ١٩٤٨ م). **وفيات الأعيان** (ج ٢). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
٧. —. (ب ١٩٤٨ م). **وفيات الأعيان** (ج ٣). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
٨. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن. (١٣٣٢ هـ). **التاريخ الكبير** (ج ٤). الشام: مطبعة الروضة.
٩. ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله. (١٩٦٤ م). **الشعر والشعراء**. بيروت: دار الثقافة.
١٠. ابن المعتز، أبو العباس عبدالله. (١٩٥٦ م). **طبقات الشعراء**. مصر: دار المعارف.

١١. ابن المنظور، محمد بن مكرم. (١٩٢٤م). أخبار أبي نواس. مصر: مطبعة الاعتماد.
١٢. أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم. (١٩٦٤م). ديوان أبي العتاهية. بيروت: [د. ن.].
١٣. ———. (١٨٨٨م). الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية (ط ٢). بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
١٤. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين. (١٩٨٦م). الأغاني (ج ٤). بيروت: دار الكتب.
١٥. ———. (ب ١٩٨٦م). الأغاني (ج ١٣). بيروت: دار الكتب.
١٦. أمين، أحمد. (١٩٥٦م). ضحى الإسلام (ط ٥). (ج ١). القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٧. بروكلمان، كارل. (١٩٧٤م). تاريخ الشعوب الإسلامية (ترجمة نبيه أمين فارسي، ومنير البعلبكي). (ط ٦). بيروت: دار العلم للملايين.
١٨. البلاذري، أحمد بن يحيى. (١٨٦٦م). فتوح البلدان (ج ٢). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
١٩. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد. (١٩٠٨م). ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. القاهرة: مطبعة الأزهر.
٢٠. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (١٩٤٨م). البيان والتبيين (ج ١). القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٢١. الجرجاني، القاضي علي بن عبدالعزيز. (١٩٥١م). الوساطة بين المتنبئ وخصومه (ط ٢). بيروت: دار إحياء الكتب العربية.
٢٢. جولدتسهر، أجناس. (د. ت.). العقيدة والشريعة في الإسلام (ترجمة محمديوسف وآخرين). (ط ٢). مصر: دار الكتب الحديثة.
٢٣. حسين، طه. (١٩٥١م). تجديد ذكرى أبي العلاء. [د. م.]. المعارف.
٢٤. الحصري، أبو إسحاق القيرواني. (د. ت.). زهر الآداب وثمر الألباب (ضبط الدكتور زكي مبارك). مصر: [د. ن.].
٢٥. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. (١٩٣١م). تاريخ بغداد ومدينة السلام (ج ٢). القاهرة: [د. ن.].
٢٦. ———. (ب ١٩٣١م). تاريخ بغداد ومدينة السلام (ج ٦). القاهرة: [د. ن.].
٢٧. دي بور، ت. ج. (١٩٣٨م). تاريخ الفلسفة في الإسلام (ترجمة الدكتور أبوريدة). القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٢٨. زيدان، جرجي. (١٩٩٦م). تاريخ آداب اللغة العربية (ج ١). بيروت: دار مكتبة الحياة.
٢٩. زين الدين الرازي، محمد. (١٩٨٧م). الأمثال والحكم (تصحيح دكتور فيروز حريجي). دمشق: المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية.
٣٠. شريف، محمد بديع. (١٩٥٤م). الصراع بين الموالي والعرب. مصر: دار الكتاب العربي.
٣١. ضيف، شوقي. (١٩٦٠م). تاريخ الأدب العربي (ج ٣). مصر: دار المعارف.
٣٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (١٩٣٩م). تاريخ الرسل والملوك (ج ٦). القاهرة: [د. ن.].
٣٣. عبدالعال، محمد جابر. (١٩٥٤م). حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية. القاهرة: [د. ن.].
٣٤. الفاخوري، حنا. (١٩٨٧م). تاريخ الأدب العربي (ط ١٢). بيروت: منشورات المكتبة البولسية.
٣٥. فروخ، عمر. (١٩٨٥م). تاريخ الأدب العربي (ط ٥). (ج ٢). بيروت: دار العلم للملايين.
٣٦. فك، يوهان. (١٩٥١م). العربية (ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار). مصر: مكتبة الخانجي.
٣٧. المرّد، أبو العباس محمد بن يزيد. (د. ت.). الكامل في اللغة والأدب (ج ١). بيروت: مكتبة المعارف.
٣٨. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. (١٩٧٣م). مروج الذهب ومعادن الجواهر (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). (ط ٥). (ج ٣). بيروت: دار الفكر.
٣٩. ———. (ب ١٩٧٣م). مروج الذهب ومعادن الجواهر (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). (ط ٥). (ج ٤). بيروت: دار الفكر.

٤٠. المقدسي، أنيس. (١٩٦٣ م). **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي** (ط ٦). بيروت: دار العلم للملايين.
٤١. نيكلسون، رينولد. ا. (١٩٤٧ م). **في التصوف الإسلامي وتاريخه** (ترجمة أبو العلاء غيفي). القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٤٢. ياقوت الحموي، أبو عبدالله بن عبدالله. (١٩٦٥ م). **معجم البلدان** (ج ٤). تهران: [د. ن].

ب) الفارسية

٤٣. ابن طباطبا، محمد بن علي. (١٣٦٧ هـ. ش). **تاريخ فخرى در آداب ملكدارى و دولتهاى اسلامى** (محمدوحيد گلپايگانى، مترجم). (ج ٣). تهران: علمي و فرهنگي.
٤٤. ابن النديم، محمد بن اسحاق. (١٣٦٦ هـ. ش). **الفهرست** (محمد رضا تجدد، مترجم و محقق). (ج ٣). تهران: اميركبير.
٤٥. اصطخري، ابراهيم بن محمد. (١٣٤٧ هـ. ش). **مسالك الممالك** (ايرج افشار، مترجم). تهران: بنگاه ترجمه و نشر كتاب.
٤٦. جهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس. (١٣٤٨ هـ. ش). **كتاب الوزراء والكتاب** (ابوالفضل طباطبايى، مترجم). تهران: تابان.
٤٧. حنّي، فيليب. (١٣٦٦ هـ. ش). **تاريخ العرب** (ابوالقاسم پاينده، مترجم). تهران: آگاه.
٤٨. مقدسي، أبو عبدالله محمد بن احمد. (١٣٦١ هـ. ش). **احسن التقاسيم** (دكتور علينقى منزوى، مترجم). تهران: [بي. نا].

ج) الإنجليزية

٤٩. Huart, Celement. (١٩٣١). **Litterature Arabe**. Paris.